مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة

العدد التاسع

1992 م.

الأستاذ السائح علي حسين

الأزهر لغة: الأبيض المشرق والمؤنث زهراء، ومنه قول كعب بن زهير يصف صحابة رسول الله ﷺ:

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

وقول الراعي النميري:

تقلب خدين كالمصحفين خطهما واضح أزهر

وقد أطلقه الفاطميون على المسجد الجامع فأصبح جامعاً وجامعة وفي تسميتهم إياه أزهر تفسيرات.

قيل: إشارة إلى فاطمة الزهراء التي تنتسب إليها الدولة، وقيل لأنه كان بين القصور الزاهرة التي تسكنها الطبقة الحاكمة.

وهذه الصيغة تنسجم مع تسمية مساجدهم فقد سموا:

الأنور، والأقمر، والأفخر.

وحينما فتح الفاطميون مصر وبدؤوا في بناء القاهرة المعزية سنة 358 هـ الموافق 969 م كان من ضمن مخطط المدينة الجديدة مسجدها الجامع الذي بدىء

في تنفيذه بعد مضي سنة واحدة تحت رعاية جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي.

ولقد تم بناؤه وافتتح للصلاة في 7 رمضان 361 هـ الموافق 972 م.

وحرص الفاطميون الذين أقاموا دولتهم على أساس ديني أن يكون المسجد الجامع متمتعاً بما يليق به من حيث الموقع والبنيان، ليمكنه أن يقوم بوظيفته الدينية والاجتماعية والسياسية على الوجه الأكمل الذي تسعى الدولة لإثبات وجودها من خلاله.

وفي السنوات الأولى كانت وظيفته مقصورة على إقامة الصلاة ولا تلقى فيه دروس الوعظ والإرشاد إلا نادراً وبصورة غير منتظمة، وأول من بدأ التدريس به بصورة منتظمة القاضي علي بن النعمان بن محمد سنة 365 هـ حيث قرأ كتاباً من تأليف والده.

وحينما تولى الوزارة أبو الفرج يعقوب بن كلس جلس في شهر رمضان سنة 369 هـ بالجامع وقرأ للناس كتاباً ألفه في الفقه الشيعي وهو المعروف بالرسالة الوزيرية.

ثم أشار على الخليفة العزيز بتعيين مدرسين منتظمين لتعليم الناس، فوافق على ذلك وأمر ببناء رواق لطلبة العلم، وملجأ للفقراء ملحقاً بالجامع وكلف ابن كلس بالإشراف على شؤون الأزهر بالإضافة إلى توليه وزراتي السيف والقلم (الحربية والمعارف) وبذلك يعتبر أول شيوخ الأزهر من الناحية الإدارية.

ونتيجة اهتمام الخليفة ووزيره به فقد وقفت عليه بعض العقارات وتوالى اهتمام الفاطميين به.

وفي بداية القرن الخامس (404 هـ) ظهر منافس لهذا المسجد تمثل في مسجد الحاكم ودار الحكمة حيث اجتذبا حلقات الدرس واستمر الاهتمام بهذا المسجد جامعاً للصلاة بصورة أساسية وإن لم تنقطع منه الدراسة بصورة كاملة. والذي يلاحظ على سياسة الفاطميين الأول هو المرونة وعدم التعصب الظاهر

لمذهبهم الشيعي، فقد تولى القضاء والوزارة بعض السُّنة، بل قد تولى الوزارة غير المسلمين من اليهود والأقباط.

وفي الأزهر كان يجلس المدرس الشيعي أبو الحسن القيرواني بجانب المدرس المالكي أبو طاهر البغدادي.

وحينما سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي حاول طمس كل ما يمت بصلة إلى الدعاية للمفكر الشيعي، ولأنه كان شافعي المذهب ومصر تحتضن ضريح الشافعي ومنها انتشر مذهبه فلم يجد صلاح الدين مشقة في عزل قضاة الشيعة سنة 566 هـ وتعيين قضاة شافعيين بدلاً منهم.

واستناداً على فتوى من القاضي الشافعي الذي لا يجيز تعدد مساجد الجمعة في المدينة الواحدة فقد أوقف صلاة الجمعة في الجامع الأزهر، وألغى بعض أوقافه التي أوقفها الحاكم عليه.

وقد استمر أفول الأزهر قرناً كاملاً حتى سقطت الدولة الأيوبية وقامت بدلاً منها دولة المماليك فأعاد إليه الظاهر بيبرس خطبة الجمعة سنة 665 هـ كما عاد إليه النشاط العلمي واهتمام الدولة به.

ولم يكن اهتمام المماليك بإحياء نشاطه لإيمانهم بفكر الشيعة، بل لأن الفكر الشيعي قد أسبل عليه ستار النسيان في مصر بالكامل.

وتنافس الحكام على توسعته وتجديده، وكانت أكبر إضافة في عهد السلطان قايتباي سنة 900 هـ وأشهرها تلك المئذنة المزدوجة الفريدة التي بناها السلطان الغوري سنة (915 هـ) ولا زالت تمثل شعاراً للأزهر لا يماثله غيره.

وفي العهد العثماني وعهد محمد علي تعرض الأزهر للإهمال واستولت الدولة على الكثير من أوقافه، ولا يستثنى من ذلك إلا فترتا عبد الرحمن كتخذا الذي جدده وأضاف إليه إضافات مهمة سنة (1167 هـ) والثانية في عهد الخديوي توفيق حيث بنيت المكتبة سنة 1314 هـ وفرشت أرضه بالرخام والسجاد.

وخلال مدة تزيد على الألف سنة وصل شكله المعماري إلى صورته الحالية

حيث بلغت مساحته 12000 متر مربع وأسطواناته 375 أسطوانة وقد كان وقت إنشائه 76 أسطوانة ومساحته أقل من ربع المساحة الحالية.

وإذا كان الأزهر الجامع لا يقع في الصدارة في العالم الإسلامي على الرغم من قدمه، فإنه جامعة حافظت على الدراسات العربية والإسلامية، ويعتبر من أقدم الجامعات في العالم.

ونتيجة ما أصاب العالم الإسلامي من نكبات بسقوط الأندلس وغارات المغول والتتار والصليبيين في المشرق الإسلامي فقد بقي الأزهر هو الملاذ للعالم الإسلامي من طنجة إلى أندونيسيا.

وقد ساعد على تسنمه مركز القيادة والتوجيه الروحي في العالم الإسلامي ما التزمه القائمون عليه من عهد صلاح الدين على دراسة الفكر الإسلامي بمدارسه السنية الأربع. وفي أوائل هذا القرن اتسع النظر في الفقه الإسلامي فأصبحت الكثير من المدارس الإسلامية مقبولة ومعترفاً بها وهي الظاهرية، والزيدية، والجعفرية، والإباضية، بالإضافة إلى المدارس السنية المعروفة.

هذا إلى موقع مصر المتوسط في قلب العالم الإسلامي وما يمتاز به شعبها من كرم وضيافة واحترام وحب للغرباء جعلتها قبلة طالبي الاستزادة من العلم بلغة الضاد والهداية من كتاب الله وسنة رسوله.

ولهذه الأسباب ـ وبخاصة عدم فرض اتجاه فكري معين على الدارس ـ أصبح الأزهر أبعد شهرة من القرويين الذي بني سنة 245 هـ أي قبله بأكثر من مائة عام.

وقد ألم بالأزهر ما ألم بالعالم الإسلامي من تقدم وانحطاط وما أصابه من نهضة وجمود، ولكنه في جميع الظروف وأحلكها كان قارب الأمان الذي تفزع إليه الأمة وقائدها لمواجهة جبروت الاستعمار والظلم والطغيان.

وباعتباره الحصن الذي يحافظ به المسلمون على دينهم ولغتهم وتراثهم فقد كان هدفاً مهماً من أهداف الاستعمار الغربي، ولأن إفساده يجعل إفساد كل ما هو

عربي وإسلامي هيناً ميسوراً فقد أصبح رجاله في موقف دفاعي يتسم بالشك والريبة في نوايا التغيير وأصبح موقفهم من كل جديد أقرب إلى التزمت والجمود.

وقد ظهرت حركات إصلاحية متعددة لتطوير الدراسة في الأزهر كان أولها في عهد الخديوي إسماعيل 1872 م وتلتها قوانين أخر، منها: قانون سنة 1936 م الذي جعل الدراسة الجامعية في كليات ثلاث، الشريعة، وأصول الدين، واللغة ومدة هذه الدراسة أربع سنوات يليها سنتان للتخصص المهني: القضاء، أو الدعوة، أو التدريس، أو تخصص مادة (دراسات عليا: أستاذية).

وفي سنة 1961 م صدر قانون فتح باب الدخول لكليات الأزهر أمام طلاب الثانوية العامة، وفتحت كليات جديدة وطورت مناهج الدراسة في المعاهد الدينية في مراحلها الابتدائية والإعدادية والثانوية.

وأصبحت جامعة الأزهر تضم عشر كليات هي:

1 ـ الشريعة والقانون.
2 ـ أصول الدين.
3 ـ اللغة العربية. (الدراسات العربية).
4 ـ المعاملات والإدارة.
5 ـ الهندسة والصناعات.
6 ـ الطب.
7 ـ الزراعة.
8 ـ العلوم.
9 ـ التربية.

10 ـ كلية البنات وهي نواة لجامعة متكاملة لاشتمالها على الأقسام التالية: الطب، العلوم، التجارة، الدراسات العربية والدراسات الإسلامية، الدراسات الاجتماعية والنفسية، اللغة الإنكليزية، الترجمة الفورية.

بالإضافة إلى إرجاع نظام الدراسة القديم داخل المسجد، وفتح باب التعلم أمام جميع الناس.

مراجع البحث

1 ـ دائرة المعارف الإسلامية ج 3 ص 183 وما بعدها ط كتاب الشعب.

2 ـ القاموس الإسلامي: أحمد عطية الله ج 1 ص 79 وما بعدها ط 63/1 النهضة المصرية.

3 ـ دائرة معارف القرن العشرين ج 4 ص 620 وما بعدها ط 71/3 دار المعرفة.

4 ـ تاريخ الملك الظاهر/ عز الدين بن شداد ص 345 ـ 360 ت أحمد حطيط ط فرانز شتايز بفيسبادن/ 83 م.

5 ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ آدم متز/ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ج 2 ص 127 ط 67/4 دار الكتاب العربي.

6 ـ مجلة الأزهر السنة 47 العدد 1 ص 702 وما بعدها.

7 ـ مجلة الهلال السنة 17 الجزء 1909/6 ص 341 وما بعدها.

8 ـ مجلة العربي:
يناير 60 ص 16 وما بعدها.
سبتمبر 81 ص 34 وما بعدها.
أكتوبر 82 ص 287 وما بعدها.
يونيو 83 ص 295 وما بعدها.

9 ـ مجلة لواء الإسلام:
يوليو 1950 ص 144 وما بعدها.
أكتوبر 1949 ص 66 وما بعدها.